طنطا

(١)

هى مدينة طفولتى ومراهقتى، وهى المدينة التى ولدت فيها وعشت فيها حتى بلغت الثالثة والعشرين من العمر، وتركتها حين كنت فى نهاية العام الرابع بكلية الطب، وهى كذلك المدينة التى عاش فيها أبى منذ سنة ١٩٤٦، حين وصل إليها طبيبًا شابًا فى السادسة والعشرين من عمره، وحتى وفاته سنة ٢٠٠٣. كان والدى قد افتتح بها عيادة فى عمارة الأوقاف القديمة بميدان المحطة، وكانت تلك العيادة ناجحة جدًا خلال الخمسينيات والستينيات، عندما كان واحدًا من أهم جراحى المسالك البولية فى وسط الدلتا، ثم تضاءل حجم عمله بالتدريج فى نهاية الستينيات، مع قدوم أساتذة جامعة الإسكندرية للعمل فى كلية طب طنطا.

عندما وصل أبى إلى طنطا سكن شارع البحر، وهو الشارع الذى حل محل ترعة (القاصد)، والتى كانت تخترق المدينة من الشمال إلى الجنوب، والناس فى بلدنا يسمون الترعة بحرًا، إلا أن هذه الترعة كانت قد تم ردمها فى الثلاثينيات، وذلك بسبب ركود مياهها وإلقاء الأهالى للزبالة فيها، مما كان يشكل مصدرًا مهمًا للعدوى بالأمراض. كان شارع البحر فى زمن طفولتى، شارعًا هادئًا جميلا، تشغل منتصفه حديقة بامتداده، وعلى جانبيها أشجار (الجاكاراندا)، وهى التى تثمر أزهارًا حمراء جميلة مع قدوم الربيع، وأنا أعتقد أن عمر هذه الأشجار لا يقل عن مائة سنة، أى أنها قبل أن تكون على جانبى حديقة الشارع الوسطى، كانت تقع على جانبى الترعة المردومة. تحول اسم الشارع حاليًا إلى شارع الجيش، إشارة إلى حركة ١٩٥٢ المباركة.

كان هذا الشارع هادئًا حتى نهاية الستينيات، عندما ظهرت فيه أول سيارة تاكسى، ثم خلال السبعينيات ظهرت فيه بالتدريج السيارات الخاصة التى يعود بها المدرسون من إعاراتهم فى البلاد العربية، وهكذا أصبح هذا الشارع دائم الازدحام، دائم الضوضاء، وذلك تقريبًا جميع أيام الأسبوع، وطوال ساعات النهار، وأغلب ساعات الليل، حيث تسير فيه بدون أية مبالغة، آلاف السيارات بين خاصة وتاكسى، فى أربعة صفوف متوازية فى كل من الاتجاهين، وعلى ما يبدو فإن أهل طنطا مازالوا يعتقدون أن تشغيل تاكسى ما زال مشروعًا مربحًا. كما تمت التضحية فى أغلب أجزاء الشارع بالحديقة الوسطى، لتحل محلها مقاعد حجرية، ونصب تذكارية، إلخ.

(٢)

إلا أن الانطباع العام الذى تتركه فىّ طفولتى فى طنطا هو الإحساس بالغربة! فأنا كنت دائم الإحساس بأنى غريب! وقد بدأ هذا الإحساس ينتابنى منذ العام الأول من الدراسة الابتدائية! أتذكر جيدًا لحظة دخولى فصل أولى ابتدائى فى مدرسة القديس لويس فى طنطا، وكيف أنها كانت لحظة من أقسى لحظات حياتى!؟ إذ اكتشفت أن كل الأطفال يعرف بعضهم بعضًا، وكانوا قد قضوا كلهم سويًا عامًا كاملا، وهو العام السابق على العام الأول الابتدائي، وتسميه المدارس حاليًا باسم حديقة الأطفال (كيندر جاردن). وذلك لأن أمى لم تكن تريد أن تتخلى عنى بسهولة، وبالتالى فقد حرمتنى من حديقة الأطفال تلك، إذ قضيت العام بين سن الخامسة وسن السادسة فى المنزل، محرومًا من اللعب مع أقرانى من الأطفال فى حديقة الأطفال فى مدرسة القديس لويس! وبالتالى فقد تولد لدىّ شعور منذ ذلك السن المبكر بأنى غريب عن هؤلاء الأطفال! ليس فقط ذلك وإنما أيضًا بأنه ليس لدىّ الحق فى اللعب مثل باقى الأطفال! وإنما أنا مدخر فقط

للأشياء الجادة! لم أتمكن من التخلص من ذلك الإحساس القاسى بعدم الانتماء وبالغربة إلا بعد ذلك بسنوات عديدة، بعد أن استطعت فيما بعد أن أجمع بين اللعب والعمل، وذلك عندما احترفت الموسيقى لبضع سنوات. ولم أستطع أبدًا أن أستمتع بأى من ألعاب التسالى المعروفة (كونكينه – طاولة... إلخ). كما أنى لم أجلس أبدًا فى مقهى حتى سن الخامسة والعشرين. وإذا عدنا إلى تلك اللحظة التى دخلت فيها الفصل لأول مرة، فقد تم استبعادى فورًا وتهميشى، فإن الأطفال فى هذا المجال هم من أقسى الكائنات! وحيث إننى كنت خجولا بطبعى، فقد زاد انعزالى! ولم أتغلب على تلك المشكلة إلا عندما بدأت أتفوق فى الفصل، وبالتالى شعر الأطفال بحاجتهم إلىّ. إلا أن ذلك اليوم الأول فى المدرسة، واكتشافى حرمانى من حديقة الأطفال، كان تقريبًا أكبر خدعة تعرضت لها فى حياتى!!

ثم إن هناك فقرة جميلة فى كتاب الفنانة منى قطان عن زوجها صلاح چاهين، ذلك الكتاب الذى ظهر سنة ١٩٨٧ بعد وفاة صلاح چاهين بعام واحد، هذه الفقرة هى (كنا نحتج معًا أنا وصلاح احتجاجًا رمزيًا على الماضى، ذلك الماضى الذى قضيناه وراء قضبان المنازل، أنا فى بيت والدتى، وهو فى بيت والديه، دون أصدقاء نلعب معهم فى الشارع، وقد تمثل هذا الاحتجاج فى رغبتنا فى أن نظل فى الشوارع طول الوقت).

هذه الفقرة تعبر بالضبط عن إحساسى الشخصى، فأنا كذلك قضيت جزءًا كبيرًا من طفولتى ومراهقتى وراء قضبان المنازل! حيث إن والداى كانا يحرصان جدًا على أن أبقى فى المنزل للمذاكرة، وكانا يصران على عدم اختلاطى لا بأصدقاء ولا بجيران! ولا أستطيع أبدًا طوال حياتى أن أنسى مشاعر الحيرة التى كانت تنتابنى عندما بدأت أنزل وحدى إلى الشارع فى نهاية فترة المراهقة، بداية من سن السابعة عشرة، ثم بعد ذلك حينما جئت إلى القاهرة أعيش

فيها مع جدتى فى حى العباسية وكنت فى الثالثة والعشرين من عمرى، وذلك لأنى وحتى ذلك السن كنت أسير من البيت إلى المدرسة فى خطوط مستقيمة، لا أتوقف أمام المحلات، لا يخطر على بالى ذلك، ولا أنحرف فى شوارع جانبية أبدًا إلا انحرافات محسوبة. كانت سيارة أبى البونتياك، ثم سيارته الأوبل، ثم البواب الذى كان يرافقنى إلى المدرسة فى الذهاب والإياب حتى الثانوية العامة، ثم وجود عدد من الخادمات فى المنزل (وعدم احتياجى بالتالى إلى النزول إلى الشارع لشراء البقالة مثلا)، ثم وجود حديقة خلفية ملحقة بالمنزل، ثم القيود التى فرضتها أمى بفرمانات سلطانية (عدم مخالطة الجيران– عدم النزول إلى الشارع). كانت هذه هى الأسباب التى أدت إلى الانتقام الوحيد الذى أسعد به جدًا، لتصفية حساباتى القديمة مع الطفولة والمراهقة خلف قضبان المنازل، وهو أن أظل كما تقول منى قطان طول عمرى ألفٌ وأدور فى الشوارع كصبايع أزلى محاولا أن أعوض بذلك حرمان الطفولة والمراهقة.

(٣)

ومع ذلك فإن ذكر طنطا يعيد إلىّ بعض اللقطات التى تومض فى الذاكرة، أولى هذه اللقطات هى مدرسة "القديس لويس" (مدرسة كانت قد أنشأتها البعثات التبشيرية الفرنسية فى وسط الدلتا فى أواخر القرن التاسع عشر). كان بناء هذه المدرسة جميلا جدًا، جدران عالية، نوافذ كبيرة، فناء واسع به أشجار معمرة، وللأسف الشديد فقد تمت مصادرة ذلك المبنى فى منتصف الستينيات؛ لتحويله إلى مقر إدارة جامعة طنطا، ثم تم هدم جزء كبير منه سنة ٢٠٠٣؛ وذلك لبناء مكاتب إدارية لجيش موظفى جامعة طنطا، وبذلك تمت التضحية بهذا المبنى الجميل، وبأشجار فنائه، للأسف الشديد ليس لدينا أى شعور

بالانتماء تجاه مبانينا القديمة والجميلة، وليس لدينا كذلك أى حس جمالى. صورة فناء المدرسة، تعيد إلى ذهنى الخطاب الذى كنت قد ألقيته فى نوفمبر سنة ١٩٦٣، فى مناسبة اغتيال الرئيس الأمريكى "كيندى"، وكان والدى هو الذى قد كتب لى تلك الخطبة. كما أن صورة فصول المدرسة تعيد إلى ذهنى "أساطير لافونتان"، والتى تدور على لسان الحيوان، حين وقفت فوق مكتبى الخشبى الصغير، تقريبًا فى نفس الوقت، لألعب دور الغراب، فى أسطورة الغراب والثعلب، حين يقنع الثعلب صديقه الغراب بأن صوته جميل طالبًا منه الغناء، ولا يدرك الغراب المسكين أن صوته قبيح، وأن هدف الثعلب الوحيد هو أن يفتح الغراب فمه، فتسقط منه قطعة الجبن. أخذت الابتدائية من هذه المدرسة سنة ١٩٦٥، بمجموع ٩٥,٣٪، وكنت العاشر على منطقة الغربية (طنطا وكفر الزيات والمحلة الكبرى وبسيون وزفتى والسنطة... إلخ).

أما فى مدرسة "سعد زغلول" الإعدادية، فقد اكتشفت مواهبى الموسيقية، وذلك عندما كنت أعزف على الكمان عزفًا منفردًا، المقدمات الموسيقية لأغانى أم كلثوم من ألحان عبد الوهاب (إنت عمرى – إنت الحب – أمل حياتى –... إلخ)، وهى المقدمات التى كان يعزفها على الكمان الموسيقار أحمد الحفناوى، وكنت قادرًا على أن أستمع إلى تلك الألحان مرات قليلة، ثم أقوم بعزفها على الكمان مع فرقة المدرسة الموسيقية. وقد مثلت المدرسة فى مسابقة أوائل الطلبة، وكنت وحدى ممثلا للمدرسة، فكنت أتولى الرد على أسئلة التاريخ والجغرافيا والعلوم واللغة العربية، ثم عندما جاء دور النشاط الفنى أخرجت الكمان من حقيبته، فقال أحد المفتشين الممتحنين (هو مافيش حد غيرك فى المدرسة ولاّ إيه؟)، ولكن عندما استمع إلى لحن "النهر الخالد" لمحمد عبد الوهاب قال (أحسنت) ثم طلب منى ممتحن آخر قطعة موسيقية أجنبية "لاكومبرسيتا" وهى من نوع التانجو،

فعزفتها له، وهكذا حصلت المدرسة على الدرجة النهائية فى الأنشطة الفنية. وهناك كذلك ذكرى حضور عدد مـــن زملائنـــا الجزائـــريين، الذين كانوا قد قدموا إلى مدارس مصر فى منتصف الستينيات، لـــتعلم اللغة العربية، وذلك للاستعانة بى فى عـــزف ســـلامهم الجمهـــورى (نشيدهم الوطنى: فاسلمى يا جزائر) فى مناســـبة عيـــدهم الـــوطنى ٢نوفمبر، وكنت قد استمعت إليه قبل ذلك مرة واحدة، ومع ذلك فقـــد عزفته هكذا ارتجالا وبدون أخطاء، أمام حشد من الطلبة الجزائـــريين المحتفلين بعيدهم الوطنى. فى ذلك الوقـــت كـــان نشـــيدنا الـــوطنى المصرى هو (والله زمان يا سلاحى)، وكان المارش العسكرى الـــذى يسير عليه التلاميذ أثناء طابور الصباح هو (نشيد الله أكبر).

Liber primus ¶ Folio xxxviij

He that is sure and well garnysshed yet by fals counceyll may be deceyued/ wherof Esope reciteth suche a fable/ ¶ An Egle was somtyme vpon a tree/ whiche helde with his bylle a nutte/ whiche he coude not breke/ The crowe thenne came to hym/ and sayd/ Thow shalt neuer breke it/ tylle thow flee as hyghe as thow mayst/ And thenne late it falle vpon the stones/ And the Egle beganne to flye and lete falle his proye/ and thus he lost his note/ ¶ And thus many one ben deceyued thorugh fals counceylle/ and by the fals tongue of other

¶ The xv fable is of the rauen and of the foxe

They that be glad and ioyefull of the praysynge of flaterers oftyme repente them therof/ wherof Esope reherceth to vs suche a fable/ A rauen whiche was vpon a tree/ and helde with his bylle a chese/ the whiche chese the foxe desyred moche to haue/ wherfore the foxe wente and preysed hym by suche wordes as foloweth/ O gentyll rauen thow art the fayrest byrd of alle other byrdes/ For thy fethers ben so fayre so bryght and so resplendysshynge/ and can also so wel synge

(٤)

تعتبر سنة ١٩٦٦ حين بلغت الثالثة عشرة من عمرى، هى السنة الفاصلة بين الطفولة والمراهقة، فقبل ١٩٦٦ كان عالمى يتكون من ١- مجموعات طوابع البريد (والتى وصل عددها فى نهاية اهتمامى بها إلى حوالى خمسة آلاف) ٢- العملات المعدنية (ولا أتذكر الآن بدقة كيف كنت قد حصلت على عملات من جنوب شرق آسيا ومن أمريكا اللاتينية) ٣- السيارات الماتش بوكس (ومعنى ماتش بوكس بالإنجليزية هو علب كبريت وهى سيارات صغيرة فى حجم علب الكبريت) ٤- دود القز (وكنت أعتقد أنه يمكننى أن أتحول إلى أحد كبار تجار الحرير) ٥- حمام سباحة النادى الرياضى بطنطا والذى كنا نذهب إليه عند تغيير المياه يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع خلال إجازة الصيف (وكنا نسمع فى ذلك الوقت عن بطولات عبد اللطيف أبو هيف فى عبور المانش – وكنت متأكدًا من أننى ذات يوم سأكون من عابرى المانش) ٦- رياضة التنس (وكنا نسمع فى ذلك الوقت عن بطولات إسماعيل الشافعى فى ويمبيلدون بإنجلترا – وغنى عن القول أننى كنت متأكدًا من أننى ذات يوم سأكون من أبطال ويمبيلدون) ٧- كتاب فى رياضة كمال الأجسام وبه صور لعبد الحميد الجندى الذى كان قد حصل على بطولة العالم فى كمال الأجسام أعوام ٦٣-٦٤-١٩٦٥ (وغنى عن القول أننى كنت متأكدًا من أننى ذات يوم سأكون بطل العالم فى كمال الأجسام) ٨- رياضة الباتيناج (وكان نادى طنطا قد أنشأ فرقة لهذه الرياضة واشتركت عام ١٩٦٥ فى أداء نمرة راقصة مع بقية الأطفال على ألحان أغنية "قطر الثورة ماشى بينا") ٩- كانت قد ظهرت فى ذلك الوقت فى أوروبا رياضة الهولاهوب (وهو إطار خشبى مستدير يضعه الطفل حول وسطه ويجعله يدور حول جسمه) ١٠- وعندما شاهدت حلقات (هارب من الأيام) لثروت أباظة والتى كان يلعب فيها دور البطولة

الممثل عبد الله غيث فى دور كمال الطبال الذى كان فى محاولة دائمة للاختفاء من البشر، كنت أخاف أن يكون قد حاول الاختفاء فى بيتنا خلف كراسى الصالون. ١١- شاهدت فى السينما فيلم (لص بغداد) وهو من حكايات ألف ليلة وليلة (وكنت متأكدًا من أننى ذات يوم سأكون لص بغداد) ١٢- الطائرات الورقية (خاصة على شاطئ البحر فى الإسكندرية) ١٣- وعندما كنت أستمع إلى المغنى (عبد اللطيف التلبانى) يغنى (إيه الحلاوة دى/ إيه الطعامة دى/ أنا قلبى عنده حق/ لما شافك ودق/ دلوقتى إن قال بحبك / مقدرش أقول له لأ) كنت أعتقد أننى عبد اللطيف التلبانى وذلك عندما تقع عينى على فتاة جميلة خاصة على شاطئ البحر فى الإسكندرية. ١٤- العزف على آلة الكمان، وكانت أمى قد اشترتها لى من محلات (بابا زيان) بشارع عدلى بمناسبة عيد ميلادى العاشر، وكان ثمنها سبعة جنيهات.

(٥)

يعتبر تاريخ نوفمبر ١٩٦٦ هو بداية مراهقتى، وكنت فى بداية الصف الثانى الإعدادى، وذلك يوم أن ذهبت إلى إحدى دور السينما فى طنطا لمشاهدة أول أفلام فريق البيتلز الإنجليزى (فى ذلك الوقت كان هذا الاسم قد ترجم خطأً بالخنافس Beetles، ولكن اسم هذا الفريق يكتب بالإنجليزية Beatles أى أصحاب الإيقاع Beat)، وكان هذا الفيلم يحمل اسم "ليالى الأيام الصعبة" Hard days nights، وذلك حين انتبهت انتباهًا شديدًا جدًا إلى هذا النوع من الموسيقى، وهذا النوع من الإيقاعات، وذاك النوع من كلمات الأغانى البسيطة، وأسلوب الغناء الجديد، وأسلوب الحركة فى الفيلم، وأسلوب التصوير فى الفيلم رغم أنه كان فيلمًا أبيض وأسود. كل هذا كان بالنسبة إلىّ فى ذلك الوقت جديدًا تمامًا، يمكن حتى أن أقول إنه كان إلهامًا إلهيًا، وأنا لا أعتبر نفسى أبالغ إن قلت أن هذا الفيلم هو أول شئ فى حياتى كان يحفزنى على التمرد، وعلى أن تكون لى شخصية مستقلة عن

أسرتى وعن المجتمع.

فى صيف العام التالى ١٩٦٧، أذهب مع والدتى إلى القاهرة، إلى شارع عدلى بوسط البلد، إلى محل بابا زيان للموسيقى، وذلك لأضع كل مدخراتى (١٢ جنيهًا)، فى شراء جيتار إسبانيول، أى جيتار خشبى بصندوق صوت، وبأوتار من البلاستيك، وكذلك فى شراء منهج لدراسة العزف على هذه الآلة، من تأليف موسيقى إيطالى اسمه (برانزولي)، ثم عدت بالجيتار إلى طنطا لأقضى أغلب وقتى فى محاولة وضع أصابع يدى اليسرى فى أماكنها على ذراع الجيتار، وفى استعمال أصابع يدى اليمنى فى النبر على أوتار الجيتار أمام فتحة صندوق الصوت (النبر يعنى جذب الوتر). وقد استغرقت عملية إخراج أصوات موسيقية من هذا الجيتار بضعة أشهر، وستستغرق بعد ذلك مسألة عزف مقطوعات موسيقية أحادية (ميلودية) بضعة أشهر أخرى، ثم لن أصل إلى عزف ما يسمى بالأكور (تآلف مجموعة من الأصوات تعزف على مجموعة من الأوتار فى نفس الوقت) إلا بعد ذلك بعامين. وسيكون هذا الجيتار هو شاغلى الأول وهمى الأكبر خلال كل سنوات الدراسة الثانوية (باستثناء سنة الثانوية العامة)، وكذلك كل سنوات الدراسة الجامعية، حتى أقرر ذات يوم أن أنتقل إلى الإقامة فى القاهرة، ويكون غرضى الوحيد من ذلك هو الاشتراك فى العزف مع فرق موسيقية محترفة.

(٦)

ورغم أن طفولتى كانت سعيدة إلى حدٍّ ما، وذلك رغم الاغتراب وقضبان المنازل، إلا أنه لا شك فى أن مراهقتى كانت تعيسة جدًا (لم تكن هناك أية مراهقة على الإطلاق والعياذ بالله)، خاصة مرحلة الدراسة الثانوية، وذلك أساسًا بسبب الإحساس بالقهر، بأننى مقهور الشخصية تمامًا أمام والدىّ، وكذلك بسبب الحرمان التام من الاختلاط

بالجنس الآخر، لا فى المدرسة ولا فى البيت ولا فى النادى، ولا فى أى مكان آخر، فزاد انغلاقى على نفسى، وانغماسى فى القراءات الرومانسية وفى الموسيقى.

عندما أتذكر مدرستى الثانوية، مدرسة طنطا الثانوية للبنين، فإن عامى الدراسى الأول بها يعيد إلى ذهنى صورتين اثنتين، الصورة الأولى هى صورتى وأنا أقف أمام مدرس اللغة الألمانية، تلك اللغة التى كانت قد أدخلت فى برامج المدارس الثانوية لأول مرة ذلك العام فقط، وحيث إننى كنت قد درست اللغة الفرنسية فى المدرسة الابتدائية، ولم يكن هناك أى مبرر بأن أعيد دراسة هذه اللغة من الألف باء، فقد اتخذت قرار دراسة اللغة الألمانية كلغة ثانية خلال سنوات الدراسة الثانوية بدون أى تردد، إلا أن ناظر المدرسة كان قد اتصل بوالدى ليبلغه باختيارى للغة الألمانية، وذلك حيث إن موافقة ولىّ الأمر كانت ضرورية. عندما علم والدى بذلك رفض اختيارى، وطلب من ناظر المدرسة إضافة اسمى إلى قائمة اللغة الفرنسية رغمًا عن إرادتى، وعندما عدت ظهر ذلك اليوم إلى المنزل قال لى والدى (انت عبيط؟ أنت لا تعرف أن الوقت الضائع فى تعلم اللغة الألمانية يمكن أن تستثمره فى دراسة العلوم والرياضيات وذلك حتى تضمن الحصول على المجموع الكافى فى الثانوية العامة لدخول كلية الطب) وبعد مرور حوالى أربعين عامًا على ذلك الموقف، ما زلت أشعر بالندم والحسرة على رضوخى المطلق لإرادة والدى، وبدون أى محاولة للتمرد عليه، أو للتعبير عن إرادتى مستعملا فقط كلمة (لا) .

أما الصورة الثانية فهى صورتى حينما أعلن خلال ذلك العام الدراسى فى أولى ثانوي، عن مسابقة فى الأبحاث التاريخية لطلبة القسم الأدبى، وتركت حرية اختيار الموضوع إلى التلاميذ، فذهبت إلى أستاذ التاريخ لأقول له أننى طالب فى الصف الأول وأريد الاشتراك فى المسابقة، فسمح لى بذلك. كنا فى العام الدراسى ٦٨-

١٩٦٩ وقد اختار أغلب التلاميذ موضوعات ثورية عن عبد الناصر، وعن حرب السويس ١٩٥٦، وعن حرب اليمن، وتجنبوا تمامًا الحديث عن نكسة ١٩٦٧، وقد اختار البعض الآخر موضوعات إسلامية عن عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز. أما أنا فقد اخترت موضوعًا عن وجهة نظر الفيلسوف الإنجليزى (فرنسيس بيكون) فى أهمية دراسة التاريخ، وقدمته إلى المدرس فى عشر صفحات فولسكاب، ورسمت على الغلاف بيدى صورة للفيلسوف، وكنت قد استعنت فى هذا البحث بكتاب عن هذا الفيلسوف من تأليف عباس العقاد، ومن طبع دار المعارف سنة ١٩٤٥. قرأه مدرس التاريخ وأعجب به، وأعطانى عليه درجة تسعة من عشرة. فى العام التالى قابلنى هذا المدرس فى المدرسة ليسألنى (لماذا دخلت القسم العلمى وأنت أكثر استعدادًا للقسم الأدبى؟) .

(٧)

وقع فى يدى جدول البرنامج اليومى لاجازتى الصيفية سنة ١٩٦٩، وكنت منقولا من الصف الأول الثانوى إلى الصف الثانى الثانوى، ٧ص استيقاظ، ٨ ص قراءات علمية لمدة ثلاث ساعات (كانت أمى قد اشترت لى بمناسبة بدء هذه الإجازة سلسلة كتب علمية مبسطة معروفة باسم "كل شئ عن" فى عشرة أجزاء مختلفة، عن جسم الإنسان وعن النجوم والكواكب وعن أشهر المخترعين، وذلك لأنى كنت قد اخترت الالتحاق بالقسم العلمى بدلا من القسم الأدبى، ذلك الاختيار الذى كان ينبغى على التلميذ تقريره فى نهاية الصف الأول الثانوى)، ١١ص الدراسات اللغوية الإنجليزية والفرنسية والألمانية (معتمدًا أساسًا فى ذلك على برامج التليفزيون التى كانت تذيع فى ذلك الوقت من العام فى تلك الساعات من النهار برامج لتدريس هذه اللغات)، راحة ساعة للغداء.

٣م استئناف العمل بالقراءات الأدبية: أولا- الأدب الروسى (ماكسيم جوركى/ الأم – ليو تولستوى / الطفولة والصبا والشباب – بوريس باسترناك / دكتور زيفاجو) ثانيًا- الأدب الفرنسى (مؤلفات إميل زولا: جيرمينال – تريزا – نانا)، وكذلك كانت قد صدرت فى ذلك العام سلسلة كتب تحمل اسم كتاب اليوم تصدر عن مؤسسة أخبار اليوم قرأت فيها: فتوح نشاطى / فنان فى باريس – أنيس منصور / بلاد الله خلق الله- أحمد بهاء الدين/ أيام لها تاريخ – كامل زهيرى / الغاضبون. كما أننى قد قرأت فى سلسلة روايات الهلال رواية (موسم الهجرة إلى الشمال / للطيب صالح). كما أننى كنت من خلال اشتراكى فى مكتبة بلدية طنطا قد استعرت وقرأت خلال نفس الاجازة الصيفية الكتب التالية (جبران خليل جبران/ النبى – درينى خشبة / المسرح الكلاسيكى- زكى نجيب محمود/ أيام فى أمريكا

وكذلك جنة العبيط- الدكتور أحمد زكى/ مع الله فى السماء ومع الله فى الأرض. وكان الدكتور أحمد زكى عميدًا لكلية العلوم جامعة القاهرة ثم عمل رئيسًا لتحرير مجلة العربى الكويتية فى بداية صدورها). هذه هى حصيلة قراءاتى خلال إجازة صيف واحدة، خلال شهور يونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر من العام ١٩٦٩، وخلال فقط ساعات بعد الظهر من الثالثة مساءً إلى السادسة مساءً.

٦م وإلى غروب الشمس إما الذهاب بالدراجة إلى الحقول القريبة لتأمل الطبيعة (وكنا نسكن بيتًا يقع على أطراف المدينة غير بعيد عن الحقول)، أو الذهاب إلى حدائق نادى طنطا الرياضى (حيث أتأمل الأشجار والنباتات والعصافير والطحالب الخضراء الطافية على مياه ترع راكدة وأنا أحاول أن أحفظ عن ظهر قلب رباعيات الخيام ترجمة الشاعر أحمد رامى: لبست ثوب العيش لم أستشر، وحرت فيه بين شتى الفكر). ٨م أعود إلى المنزل لأخصص ثلاث ساعات لتمارين العزف على الجيتار، ١١م الذهاب إلى الفراش ومعى راديو صغير على موجة البرنامج الموسيقى (وكان ذلك البرنامج فى بداياته وسأستمع من خلاله فى العام ١٩٧٠ إلى كل أعمال الموسيقى الألمانى "بيتهوفن" بمناسبة مرور مائتى عام على ميلاده) أو على موجة البرنامج الثقافى (وكان يعرف وقتها باسم البرنامج الثانى وأستمع عليها إلى مسرحيات عالمية وإلى ندوات فى النقد الأدبى). هكذا كل يوم على نفس الوتيرة، بدون كلل أو ملل، بهدوء نفس وسكينة، لا تليفزيون ولا فيديو ولا فيديو جيمز ولا دش ولا كمبيوتر ولا إنترنت ولا موبايل، يا للسعادة التى عشت فيها، ويا للجحيم الذى يعيش فيه الجيل الحالى المسكين، هذه هى فقط وجهة نظرى فى الموضوع.

(٨)

كنت فى معمل علم الحيوان بالسنة الإعدادية بكلية طب طنطا وذلك فى يناير ١٩٧٢، وكان علينا دراسة الأجهزة الداخلية لجسم الضفدع (العضلات – الأعصاب – الدورة الدموية – الجهاز الهضمى – ... إلخ)، وكان الزملاء يمسكون بضفدع التجربة من سيقانه الخلفية ويضربون رأسه على الحافة الخشبية لمناضد المعمل، وذلك حتى يموت دماغيًا (وإن كانت أجهزته المختلفة تظل تعمل بعد ذلك لمدة ساعة على الأقل)، ولم أكن أستطيع أبدًا أن أفعل مثلهم، وذلك لأنى كنت ما أزال أتذكر كيف كانت الضفادع تتحدث مع بعضها، ومع غيرها من الحيوانات والنباتات، فى أقاصيص "هانز كريستيان أندرسون" الدانماركى، خاصة أقصوصة (أقحوانة الحقل)، وذلك عندما جاء زميل يخرجنى من عذاباتى تلك بالحديث عن فتح باب العضوية فى نادى سينما طنطا، والذى لا يشترط إلا أن يكون طالب العضوية قد حصل على الثانوية العامة، وحيث إننى كنت طالبًا فى كلية الطب فلم تكن هناك مشكلة .

اشتركت فى النادى وبدأت فى حضور العروض مرة كل أسبوع، وكانت الأفلام تأتى بالقطار من القاهرة، لتبيت ليلة فى طنطا، ثم لتستأنف طريقها بعد ذلك إلى نادى سينما الإسكندرية اليوم التالى. فى الأسابيع الأولى لم يكن عدد الحضور يتعدى عدد أصابع اليد الواحدة، ولكن ذات مرة فوجئت بوجود عشرين شخصًا على الأقل، فى البداية لم أفهم، جلست فى مكانى المعتاد ثم بدأت أسمع كلمات متناثرة فهمت منها أن سبب التجمع الجماهيرى هو وجود لقطات عارية فى الفيلم الذى كان اسمه (الغذاء على العشب) للمخرج الفرنسى جان رينوار. بدأ العرض وكان الحاضرون يتلمزون، وعندما جاءت اللحظة الموعودة، وظهرت فتاة شقراء فى ملابس شفافة تفترش العشب

(وهى لم تكن عارية ولا حاجة، وحتى لو كانت فإن عريها لا يقارن على الإطلاق بما يمكن لأى شخص أن يراه حاليًا فى أى وقت على أى دش أو على أى إنترنت)، فى هذه اللحظة طلب الحاضرون من عامل البروجيكتور (جهاز العرض) أن يوقف الشريط السينمائى على هذه اللقطة، فاستجاب لطلبهم، إلا أن التوقف كان قد طال، بناء على رغبة الجماهير، أكثر من اللازم، فكانت النتيجة المباشرة هى احتراق الشريط، أما النتيجة غير المباشرة فكانت هى إلغاء النادى، ويا فرحة ما تمت.

(٩)

تركت طنطا سنة ١٩٧٦ لأستأنف الدراسة فى كلية طب عين شمس، ولكنى عدت إلى طنطا بعد التخرج لأعمل نائبًا عامًا للجراحة والباطنة والأطفال وأمراض النساء والولادة فى مستشفى الهلال الأحمر بطنطا خلال صيف ١٩٨٣، وكان ذلك العمل يقتضى منى البقاء فى المستشفى ٣٦ ساعة متواصلة (أى من ٨ ص إلى ٨ م اليوم التالى) ثلاث مرات فى الأسبوع!! وهو مجهود خرافى خاصة إذا عرف أن هذا العمل كان يتوزع بين أربعة طوابق خلال ساعات الليل والنهار، وأن المصعد كان غالبًا (وكالمعتاد فى المؤسسات العامة) عطلان!! كنت أحضر إلى المستشفى ٨ ص لأبدأ عملى وحتى ١٢ ظهرًا بتغيير ضمادات جروح العمليات وتطهيرها لمرضى الدور الرابع (حوالى ٦٠ مريضًا) كذلك مع متابعة العلاج والإشراف على توزيع الأدوية على المرضى، وكذلك كتابة البيانات اليومية لتطور حالة كل مريض فى التذكرة (الملف أو الدوسيه) الخاص به، ثم من ١٢ ظهرًا وحتى الثالثة بعد الظهر العمل فى العيادات الخارجية لاستقبال المرضى القادمين من خارج المستشفى (كشف وكتابة علاج وكتابة تذاكر دخول إلى المستشفى لمن تستدعى حالتهم ذلك) ثم من الثالثة بعد الظهر وحتى الثامنة مساءً العمل كمساعد فى

حجرة العمليات (استئصال الطحال – الغدة الدرقية – غضاريف الرقبة – حصاوى المثانة.. إلخ) ثم من ٨ م وطوال الليل أظل فى حالة استنفار (حالة استعداد قصوى) فقد يُطلب منى النزول إلى استقبال الحوادث أو طوارئ القلب (أزمات قلبية) أو طوارئ الولادة (حالات متعثرة أو ولادات حرجة) وكذلك المرور كل ساعة على قسم الرعاية المركزة.... إلخ! ومع كل هذا كان مطلوبًا منى الإشراف على سير العمل بشكل عام فى المستشفى (دورات مياه – مصاعد – تغذية المرضى – الإشراف على زيارات أهالى المرضى – إلخ)!!

كنت مازلت فى الثلاثين من عمرى قادرًا على هذا المجهود الجسمانى، حتى بعد أن قبضت أول مرتب شهرى ولم يكن يتعدى ٥٥ جنيهًا، استطعت أن أقنع نفسى بالبقاء بحجة التعلم والاستفادة!! حتى كان ذلك اليوم الذى لاحظت فيه الإهمال المتعمد والمتكرر من إحدى الممرضات، فذهبت أشتكيها إلى مدير المستشفى، وعندما دخلت حجرته وجدت الممرضة لديه، فقد سبقتنى إليه لتشتكينى!! فوجئت أكثر بدفاعه عنها وبإشادته بكفاءتها!!

وبعد أن غادرت تلك الممرضة حجرة المدير وبقيت أنا، قال لى: لا تؤاخذنى فإن تركت هذه الممرضة المستشفى لن أجد غيرها فإنهن مطلوبات بشدة فى البلاد العربية، أما إذا تركت أنت المستشفى فأنا أستطيع أن أجد غيرك فى نفس اللحظة لأن عدد الأطباء أصبح ثلاثة أضعاف عدد الممرضات!!!

وكان هذا اليوم هو يومى الأخير فى تلك المستشفى!!!

العيّاط (صعيد مصر)

هو اسم على مسمى. هى مدينة صغيرة تقع فى أول طريق الصعيد الزراعى، على بعد حوالى ٦٠كم جنوب الجيزة، ولم أكن أعرف سبب هذه التسمية حتى فبراير سنة ٢٠٠٢، عندها أدركت أن القدر كان يعرف مقدمًا سبب هذه التسمية التى تدل على كثرة البكاء، وأن المصريين المحدثين لن يعرفوا سبب هذه التسمية إلا بعد حادثة قطار الصعيد فى فبراير سنة ٢٠٠٢. كان المصريون فى يوم الحادث يحتفلون بعيد الأضحى المبارك، وفى تلك الأحوال تكون كل القطارات، وفى كل الاتجاهات، مزدحمة جدًا، حيث إن ٩٠٪ من المصريين لا يملكون سيارات، وأن القطار ما زال أرخص كثيرًا، خاصة فى درجته الثالثة، من الأتوبيس (النقل العام) أو من تاكسيات الأقاليم. وهكذا قد امتلأت العربة الأخيرة من هذا القطار المشئوم بعدد ٣٥٠ راكبًا مصريًا، من كافة الأعمار، لا يجمع بينهم إلا فقرهم، ورغبتهم الشديدة فى العودة إلى الأهل، للاحتفال معًا بالعيد مهما كان الثمن، ومهما كانت التضحيات، حتى لو كانت ركوب قطار الصعيد.

بعد تحرك القطار بنصف ساعة، شب حريق ما فى هذه العربة الأخيرة من القطار، لسبب ما زال مجهولا حتى الآن (بعد مرور ثلاث سنوات)، قيل أن عامل البوفيه الذى يستعمل أنابيب بوتاجاز فى تسخين الماء اللازم للشاى هو السبب، حيث إن واحدة من هذه الأنابيب حتمًا قد انفجرت قضاءً وقدرًا، وقيل أن السبب هو عود كبريت أشعل سيجارة وألقى خطأً على الزيوت التى دهنت بها الحوائط الداخلية للعربة، وكانت من النوع السريع الاشتعال.

عندما اندلعت النار حاول الركاب المساكين فتح أبواب العربة، ولكنهم اكتشفوا أنها قد أغلقت عليهم من الخارج، وأنه لا يمكنهم إطلاقًا فتحها من الداخل (لم أفهم أبدًا الداعي لإغلاق هذه العربات ذات الأبواب التي لا تفتح من الداخل، إلا إذا كان القصد جنائيًا). حاول الركاب المساكين فتح النوافذ لإلقاء أنفسهم منها، إلا أنهم اكتشفوا أن هذه النوافذ مغلقة بقضبان حديدية، تمنع مرور حتى الأطفال منها. صرخوا جميعًا صرخة هائلة، شعر بها ركاب العربة التالية، ووصل الخبر إلى سائق القطار (تخيلوا أنه ليست هناك أي وسيلة للاتصال بين أي من عربات القطار وسائق القطار). أوقف السائق القطار، ونزل من القاطرة، وذهب ليستطلع الأمر، وعندما أدرك حقيقة ما يحدث، اتخذ قرارًا غريبًا جدًا، قرار لا يمكن أن يُتخذ في أي مكان في العالم، ألا وهو قرار فك وصلات تلك العربة المحترقة عن باقي القطار! ثم عاد إلى قاطرته ليقودها بقلب بارد ومشاعر ميتة، تاركًا وراءه ٣٥٠ من مواطنيه يحترقون ويصرخون حتى الموت! ثم عندما وصل إلى محطة مدينة العياط، وكان فك العربة قد حدث قبل الوصول إلى المحطة ببضعة كيلو مترات، أبلغ مفتش المحطة بالخبر، واستأنف طريقه كأن المسألة لا تعنيه .

بعد حوالي ساعة حضرت سيارات الشرطة والمطافئ والإسعاف لتكسير الأبواب، واستخراج ٣٥٠ جثة متفحمة، واكتشف الجميع أنه لم يكن بالعربة أي وسيلة لإطفاء الحريق، ولا حتى طفايات الحريق الصغيرة مثل تلك التي يشترط المرور وجودها في السيارات الخاصة الصغيرة لزوم تجديد الترخيص، تلك الطفايات التي يعتبر وجودها إجباريًا لزوم تجديد ترخيص سيارة لا تحمل في أغلب الأحيان إلا شخصًا واحدًا، أو تحمله هو وأسرته.

بعد عدة أشهر من المحاكمات اكتشفتُ حصول جميع المسئولين على البراءة، ولم نعرف من هو السبب في هذا الحادث، وما زلت

أتساءل: كيف لم يحصل سائق هذا القطار على الحكم بالإعدام حرقًا حتى الموت، هذا هو أقل جزاء لفعلته، ثم كيف أن وزير المواصلات فى ذلك الوقت لم يترك منصبه لا بالإقالة ولا بالاستقالة؟

استمر تواجد الشرطة المكثف فى المدينة عدة أيام، وذلك حتى لا تتعرض قطارات الصعيد وسائقيها للاعتداء عليهم من جهة الأهالى الغاضبين، دائمًا ما نبحث عن الحلول الأمنية، ولا نبحث أبدًا عن أصل المشكلة. أنا أستعمل دائمًا طريق الكورنيش فى الذهاب إلى المعادى والعودة منها، وهو طريق خطر جدًا للمشاة، إذ ليس به على الإطلاق أية إشارات مرور تسمح للمشاة المساكين بعبور الطريق بأمان، وليست هناك أى كبارى علوية، وغالبًا ما تكون السيارات على هذا الطريق مسرعة، وكثيرًا ما يحدث أن تدهس هذه السيارات أحد العابرين، وغالبًا ما يكون إما رجلا متقدمًا فى السن لم يستطع عبور الطريق جريًا كما يفعل الشباب، أو تكون سيدة سمينة لا تستطيع هى أيضًا أن تجرى، أو أن يكون طفلا صغيرًا لم يدرك بعد مدى قسوة الحياة. فى هذه الأحوال تكون سيارة الشرطة هى أول من يصل إلى موقع الحادث، حتى قبل سيارة الإسعاف، وينتشر جنود الأمن المركزى فى المكان، إرهابًا للمواطنين الأبرياء، الذين قد يفكرون فى الشكوى من عدم وجود أماكن عبور للمشاة .

الفيوم

(١)

فى مارس ١٩٩١ تعرفت زوجتى الفرنسية على خزّافة (صانعة خزف) سويسرية، اسمها (إيفلين)، والتى دعتنا ذات يوم لقضاء نهاية الأسبوع فى الفيوم، فى قرية صغيرة تقع على ضفاف بحيرة قارون، فى أقصى طرفها الغربى، اسم القرية هو (تونس). ذهبت أنا وزوجتى إلى ميدان الجيزة، وأخذنا تاكسيًا مخصوصًا إلى تونس، التى نصل إليها بعد محاذاة ساحل البحيرة الجنوبى، وبامتداد طول البحيرة.

كانت (إيفلين) معتادة على أن تفتح بيتها للأصدقاء والمعارف، من المصريين والأجانب، أو من العائلات المختلطة، خلال عطلة نهاية الأسبوع، مقابل وجبة يحضرها الضيوف معهم من القاهرة. وكنا قد أحضرنا معنا زوجًا من الفراخ المشوية.

وصلنا إلى منزل إيفلين فى تونس بعد ظهر يوم خميس، وتعرفنا على عائلتها، والمكونة من زوجها السويسرى، وهو يعمل مهندسًا معماريًا ومعالجًا بالأعشاب، نعم كان يمارس مهنتين اثنتين فى نفس الوقت. وكان فى ذلك الوقت مشغولا تمامًا ببناء مساكن للقاهريين، الذين يشترون قطعًا من الأرض الصحراوية، أو الواقعة على أطراف القرية جهة الصحراء، ليبنوا عليها بيوتًا ذات طراز واحد، وهو طراز المعمارى حسن فتحى، ذى القباب الدائرية والحدائق الداخلية، والمداخل المنكسرة والنوافذ المرتفعة. كما أنه كان يصنع أدوية من الأعشاب والنباتات الطبيعية، ويوزعها مجانًا على المرضى من

الفلاحين، وهو العلم الذى يدرس حاليًا فى بعض جامعات أوروبا ويعرف باسم (هوميوباثى Homeopathy)، وهو يسمح بتخليق أو بتركيب أدوية من مكونات نباتية، لا دخل للصناعة ولا للكيمياء الصناعية بها.

كما تعرفنا كذلك إلى ابنهما وابنتهما. وكانت إيفلين قد اتخذت قرارًا خطيرًا فيما يتعلق بهما، إذ إنها لم ترسلهما إلى المدرسة، أو أنها لم ترغمهما على الذهاب إلى المدرسة، وإنما تركتهما يتعلمان هكذا من الطبيعة وبالفطرة.

وهكذا فإن الصبى الذى كان فى السادسة عشرة من عمره فى ذلك العام، لم يكن قد ذهب أبدًا إلى المدرسة، وإنما تعلم هكذا القراءة والكتابة باللغة العربية، من البيئة المحيطة به، وقد حصل على شهادة محو الأمية فقط لا غير، وكان يعلقها بفخر على حائط حجرته. ولكن ينبغى إضافة أنه كان يجيد التحدث بالفرنسية والألمانية التى تعلمها من والديه. وكان يقضى كل وقته فى الحقول مع الفلاحين، لتعلم أسرار زراعة الأرض، وذلك لأن كل طموحاته واهتماماته المستقبلية تتعلق بالأرض.

أما الفتاة وكانت فى الثامنة عشرة من عمرها، فإنها كانت قد اختارت أن تذهب إلى المدرسة الابتدائية، ثم إلى المدرسة الإعدادية فى قرية تونس، ثم ذهبت بعد ذلك إلى المدرسة الثانوية الزخرفية فى مدينة (أبشاواى)، والتى تبعد حوالى أربعين كيلو مترًا من تونس. وكانت تذهب إليها صباحًا، وتعود منها بعد الظهر باستعمال سيارات التاكسى بالنفر. كانت تجيد التحدث بالعامية المصرية باللهجة الفيومية، رغم مظهرها الأوروبى الواضح .

كانت إيفلين قد جاءت أولا وحدها إلى مصر فى منتصف الستينيات، ثم تزوجت من أحد شعراء العامية المعروفين، ثم استقرت فى الفيوم وافتتحت مدرسة لتعليم حرفة الخزف للأطفال، وهى تقدم

لهم هذه الخدمة مجانًا طوال تلك السنوات الأربعين (نحن الآن في عام ٢٠٠٥)، وهي تقيم معرضًا في القاهرة مرة واحدة كل عام، لبيع منتجات مدرستها تلك، والتي تلقى رواجًا كبيرًا بين المصريين، وبين الأجانب المقيمين في القاهرة. إلا أنها هي وأسرتها مازالوا يعيشون أساسًا على زراعة الأرض، وعلى تربية الدواجن، مثل أي أسرة ريفية مصرية.

(٢)

في مارس ٢٠٠٥ دعاني بعض أصدقائي الفرنسيين، العاملين في مدرسة القنصلية الفرنسية بالمعادي، إلى الذهاب معهم في رحلة إلى صحراء الفيوم، وذلك لزيارة وادي الحيتان، فوافقت فورًا. كان ينبغي عليّ أولا الذهاب إلى سوبر ماركت ألفا بالزمالك لشراء حقيبة نوم (Sleeping Bag)، حيث إنه كان من المخطط له أن نقضي ليلة في خيام، ستدق أوتادها ليلة واحدة في قلب الصحراء.

ذهبت صباح يوم السفر بتاكسي إلى مدرسة المعادي، ومعي حقيبة النوم، وكذلك حقيبة صغيرة بها بعض الأطعمة الخفيفة المختلفة، وزجاجات المياه. اكتشفت أن الرحلة تتكون من خمس سيارات (٤×٤)، وهو التعبير الذي يطلق على السيارات المجهزة بحيث تكون لكل عجلة من عجلاتها الأربع أجهزة مقاومة الغرس في رمال الصحراء، وأن بكل سيارة أربعة ركاب، وهكذا عرفت أن العدد الإجمالي هو عشرون راكبًا، وكنت بينهم المصري الوحيد .

من الطريق الدائري، إلى طريق شارع الهرم، ثم طريق مدينة ٦ أكتوبر، إلى طريق الواحات البحرية الذي قطعنا فيه حوالي ثلاثين كيلو مترًا، ثم انحرفت السيارات يسارًا، لنسير على الرمال في قلب الصحراء. قطعنا حوالي ثلاثين كيلو مترًا ونحن نحاول تجنب المزالق والمنحدرات وبحور الرمال، ومع ذلك فقد انغرست سيارة

جون نويل، وهى فى الواقع كانت أقدم السيارات الخمس، إلا أننا تعاوننا جميعًا على إخراجها من الرمال، وذلك بوضع ألواح معدنية خلف كل عجلة من العجلات الأربع، ورفع السيارة بقوة عشرة رجال من الرمال إلى تلك الألواح، وقد عرفت منهم أن السيارة تزن حوالى ٨٠٠ كجم.

توقفنا أمام هياكل عظمية لحيتان، يبلغ طول كل منها حوالى عشرة أمتار، ويعود عمرها حسب اللوحات الإرشادية المعلقة، إلى حوالى ٤٠ مليون سنة، وذلك حينما كانت هذه المنطقة تغمرها مياه البحر المتوسط، والذى كانت تصل سواحله فى ذلك الوقت إلى مدينة أسيوط، وهى المدينة التى عثر فيها مؤخرًا على حفريات لقواقع بحرية عمرها هى أيضًا ٤٠ مليون سنة. ولكنى لم أجد فى هذه الهياكل العظمية للحيتان أى عظام للأقفاص الصدرية، كما كنت أتخيل، أو كما شاهدت فى صور فوتوغرافية. هل كانت هذه الأقفاص الصدرية موجودة ثم اختفت؟ هل سرقت؟ لم نجد فى أغلب الأحوال جزءًا مكتملا فى هذه الهياكل العظمية إلا العمود الفقرى .

وصلنا حوالى الخامسة مساءً إلى مكان به شجيرات شبه جافة، وتوقفنا عنده. أدركت أنهم كانوا يبحثون عن هذا المكان بالتحديد، ليكون مقرنا للمبيت خلال الليل، وذلك لأن هذه الشجيرات الجافة كانت مفيدة جدًا لتغذية النار التى أشعلناها لنستدفئ بها، ولذلك فقد تجمعنا حولها، ثم بدأنا فى شواء اللحم اللازم لطعام العشاء.

وقد سألنى الفرنسيون: (لماذا لا يحب المصريون الصحراء؟).

قلت (منذ الفراعنة والصحراء تمثل لهم قوى الشر، فالصحراء والعواصف الرملية والنار وحرارة الشمس والإله ست Seth هى مترادفات، أما فى العصر الحديث فإن المصريين ممنوعون لأسباب عسكرية أمنية من محاولة اكتشاف صحراء بلادهم).

قال أحد الفرنسيين: (رغم أننى أقيم فى مصر بالكاد منذ بعضة

أشهر، إلا أنه يبدو لى أن المصريين ممنوعون من أشياء كثيرة).

قلت: (المصريون يعرفون أن القاعدة فى مصر هى أن كل شئ ممنوع وذلك حتى يثبت العكس).

قال: (لا غرابة إذن فى السلبية واللامبالاة والقدرية التى يتعاملون بها مع كل شئ).

اكتفيت بهز رأسى ولم أعلق .

كنت قد تساءلت بينهم عن كيفية معرفتهم بهذا الطريق، فى قلب الصحراء وبدون أى علامات إرشادية، أولا إلى وادى الحيتان، ثم الآن إلى هذا المكان، شرح لى أحدهم أن إحدى السيارات مجهزة بشاشة، وأن هذه الشاشة متصلة بالأقمار الصناعية (Satellite)، وبكتابة خطوط الطول والعرض للمكان الذى نريد الذهاب إليه على هذه الشاشة، يظهر عليها هذا المكان فى شكل نقطة ثابتة مضيئة، وتظهر كذلك نقطة أخرى متحركة مضيئة هى السيارة، وهكذا نحاول أن نكتشف الطريق عبر الصحراء، بتحريك نقطة السيارة المضيئة فى اتجاه النقطة الثابتة. وعرفت كذلك أن هذا النظام مطبق حاليًا فى سيارات التاكسى ببعض المدن الأوروبية (باريس مثلا)، وذلك عندما يكون السائق غير متأكد من الطريق إلى العنوان الذى يريد زبونه الذهاب إليه، وهذا النظام يسمى G.P.S، أى القيادة عبر الأقمار الصناعية، وبالإنجليزية Guided per Satellite. (اللى يعيش ياما يشوف – مثل شعبى مصرى).

القاهرة

(١)

ذات يوم كنت مع مجموعة سياحية نزور منطقة الأزهر والحسين، وفى الموعد المحدد للعودة إلى الأتوبيس السياحى، فى موقف السيارات السياحية، أمام جامع الحسين، سمعنا كلبًا يعوى بطريقة مؤلمة جدًا، فسألنى سيّاحى (ماذا يحدث؟) (كاس كيس باس Qu'est ce qui se passe)، سألت أهل المنطقة فقالوا لى (تقوم البلدية أحيانًا بإطلاق الرصاص على الكلاب الضالة فى المنطقة، إلا أنه فى أحيان كثيرة فإن هذا الرصاص لا يقتل الكلاب، ولكنها تظل تجرى فى الشوارع وهى تتزف وتعوى إلى أن تموت)، قلت (أليست هناك أية طريقة لمساعدة هذا الكلب المسكين على التخلص من هذا العذاب؟)، قالوا (نحن نتركه هكذا يموت وحده وينزف على مهله)، وكان الكلب يختبئ أسفل سيارة من سيارات شرطة السياحة الواقفة فى الميدان، قلت (أليست هذه قسوة غير مبررة؟)، قال أحدهم (الكلب حيوان نجس)، وقال آخر (وحتى لو خرج من مكانه الذى يختبئ فيه فإنه يعرف أن أطفال الحى سيقذفونه بالطوب والزلط حتى يموت).

فكرت طويلا فى عذاب هذا الكلب المسكين، ولكنى فكرت كذلك فى التفسير الذى يمكن أن أقدمه لسيّاحى، وأنا أعرف أن هذا الحيوان لديهم هو كائن مدلل، ولم أجد إلا أن أخترع قصة، أن هذا الكلب قد دهسته سيارة مسرعة، وأن أهل الحى قد اتصلوا بسيارة "إسعاف كلاب"، وأنها ستحضر فورًا لإنقاذه. الغريب أنهم اقتنعوا بكلامى، رغم كل الظواهر الدالة على استحالة ذلك، وهكذا أنقذت نفسى من

هذه الورطة. إلا أننى تذكرت تعليقًا على موقف مشابه فى أحد الأفلام المصرية، عندما قال البطل (فى حى شعبى) إلى مثقف يشعر بالاغتراب (مثلى) (يا بك كيف تطالب بحقوق الكلاب، فى بلد تضيع فيه حقوق البشر؟!). الغريب هو أن بالقرب من موقف السيارات السياحية كانت توجد مجموعة من العمداء والعقداء يجلسون فى الشمس، للإشراف على أمن المنطقة، ولم يلتفت أى منهم إلى عواء الكلب. فكرت فى أن أذهب إليهم لأطلب منهم التدخل، ولكنى خفت من السرايا الصفراء وقميص الأكتاف.

(٢)

كلما نزلت إلى منطقة وسط البلد حاليًا، تذكرت ما قاله الدكتور حسين مؤنس المؤرخ الإسلامى والمفكر المعروف، فى مقاله عن مدينة القاهرة، المنشور فى مجلة أكتوبر فى منتصف الثمانينيات، وكان عنوانه "الجحيم"، وأتذكر أنه كان قد استعمل فى عنوان الموضوع الكلمة باللغة الإيطالية "INFERNO"، وذلك للإشارة إلى المؤلف الإيطالى دانتى Dante، ويمكن أن تنطبق هذه التسمية بدقة على محطة سيارات النقل العام (أتوبيس ومينى باص) فى ميدان العتبة.

ضوضاء قاتلة، فكل الأتوبيسات تطلق أبواق التنبيه دون توقف، عند دخول السيارة إلى المحطة، أو عند خروجها من المحطة، ففى كل الأحوال يندفع السائق فى الممر المخصص لسيارته، دون عمل أى اعتبار لحساب البشر الموجودين فى الممر، ويكتفى بمجرد الضغط على بوق التنبيه فى سيارته، وكأنه بذلك يخلى مسئوليته من أى حوادث يمكن أن تقع للمواطنين الذين يندفعون فى أى اتجاه لإنقاذ حياتهم، وكأن هناك ثأرًا (بايت) بين السائقين والجمهور. يجرى هذا الجمهور من جديد فى اتجاه أبواب السيارات، وكأن الناس يحاولون الهرب بجلدهم من هذا الجحيم إلى داخل الأتوبيسات، كأن داخل

الأتوبيسات هو الجنة الموعودة. ناهيك عن ضوضاء باعة الكاسيت، القادمة من جهة سوق العتبة، ثم أكوام الزبالة والروائح العطنة، وعفن جثث القطط والكلاب التى دهستها السيارات وتركت تتعفن فى أماكنها، ثم المياه التى يرشها الباعة أمامهم ثم يكنسونها عليك وأنت تمر، فيصيبك منها الرذاذ المتطاير المختلط بالقاذورات، كأنه لا اعتبار لك على الإطلاق.

خرجت من المحطة ومشيت على الرصيف فى ميدان العتبة، ثم اضطررت لمغادرة الرصيف وذلك لوجود باعة جائلين يشغلون الرصيف ببضائعهم، فنزلت إلى نهر الطريق فكادت أن تدهسنى سيارة سرفيس، اكتشفت أن الذى يقودها صبى فى حدود سن الخامسة عشرة، فعدت إلى الرصيف فى نفس اللحظة التى كان يمر فيها رجل يحمل أسياخ حديد على كتفه، كادت أن تصدم رأسى بإصابة قاتلة. هذا الرجل يحمل تلك الأسياخ دون أن يحاول أن ينظر أمامه للتأكد من عدم وجود مارة يمكن أن تصيبهم تلك الأسياخ فى مقتل، ثم إنه لم يعد حتى يفكر فى الاعتذار إليك أو حتى فى الابتسام فى وجهك.

شئ مؤلم جدًا المشى فى شوارع القاهرة، فأنت تفاجأ بوجود كراسى مقهى أو أقفاص فاكهة على الرصيف، فتنزل إلى الشارع لتفاجأ بأن السيارة التى كانت واقفة حتى لحظة واحدة مضت، بدأت هكذا فجأة تتحرك، وأنه يجب عليك تفاديها وإلا دهست قدمك. ثم هناك كذلك مشكلة عبور الطريق، فلم تعد هناك أية أماكن على الإطلاق لعبور المشاة، وحتى بفرض وجود تلك الأماكن، فإن السيارات لم تعد تحترم أى عابر طريق، ولا حتى إشارات المرور أصبحت تحترمه. عندما كنت شابًا صغيرًا كان يمكننى عبور الطريق جريًا، أما الآن وأنا فوق الخمسين فالوضع أصبح مختلفًا. هل هذه المعاناة التى ألقاها الآن فى نزولى إلى وسط البلد هى فقط بسبب التقدم فى السن؟ هل هذه الظواهر كانت موجودة من قبل ولكنها لم تكن تلفت انتباهى؟ أم أن

الأوضاع فعلا فى هذه المدينة فى تدهور مستمر؟

يزدحم الرصيف القاهرى بالباعة الذين يفترشون الأرصفة، وهذا خطر إذ إنهم لا يتركون مكانًا كافيًا للمشاة، الذين يضطرون إلى ترك الرصيف والنزول إلى نهر الطريق. إلا أن الأخطر من ذلك هو ما يحدث عند ظهور سيارة شرطة البلدية، إذ يندفع هؤلاء الباعة حاملا كل منهم بضاعته على لوح خشب فوق رأسه، خوفًا من مصادرة الشرطة للبضاعة، ويكون اندفاع الباعة بسرعة كبيرة عمياء هوجاء، لا يرون فيها إلا أنفسهم، وفى هذه الحالة قد يتساقط متقدمو السن والأطفال تحت أقدامهم. لماذا لا يدرس نظام مثل ذلك الذى تطبقه المدن الأوروبية، ويتلخص فى تخصيص أماكن معينة فى أيام معينة، يتجمع فيها هؤلاء الباعة الجائلون، تحت إشراف البلديات، بعد دفع رسوم رمزية، وذلك ليمارسوا تجارتهم المشروعة.

(٣)

قال أنيس منصور ذات مرة (إن التفاف المصريين فى الشوارع المصرية بالعشرات أو حتى بالمئات، حول ما يقع فى هذه الشوارع من حوادث، هو بسبب أنهم كانوا فى هذه الشوارع يهيمون على وجوههم، بدون هدف واضح، وأن وقوع هذه الحوادث يعطى لوجودهم فى الشارع هدفًا واضحًا. كما أنهم عندما يرون الحادثة يقولون فى أنفسهم، الحمد لله أن هذه الحادثة لم تقع لهم وإنما وقعت لغيرهم، وبذلك فإنهم يجدون ما يحمدون عليه ربهم).

كنت أجلس على أحد مقاعد كورنيش النيل أمام دار الكتب والوثائق القومية برملة بولاق، وكان وجهى متجهًا إلى طريق الكورنيش. شاهدت تاكسيًا يتوقف فى وسط الطريق فجأة، إذ بدا

لسائقه احتمال وجود زبون على الرصيف. نتيجة لتوقف هذا التاكسى المفاجئ فرملت السيارة التى كانت تسير خلفه بسرعة معقولة، ولكن نتيجة لهذه الفرملة، اصدمت سيارة أخرى كانت تسير مندفعة إلى حد ما بالسيارة التى فرملت. فى نفس هذه اللحظة اكتشف سائق التاكسى أن الزبون لم يكن إلا وهمًا، فاستمر فى طريقه. فى نفس الوقت نزل سائقا السيارتين الأخريين ليتعاركا بالأذرع. ابتعد المتسبب الأصلى فى الحادثة عن المكان دون أى إحساس بالذنب. فى تلك الأحوال يسألك المصريون الذين يتجمعون فورًا بالعشرات حول مكان الحادث (هل تقبل التعويض؟) ينظرون إليك باستنكار، كيف أنك لا تدرك أن كل شئ مكتوب، وأن قبولك التعويض هو نوع من الكفر بالله. وهكذا تستمر تلك السلسلة الجهنمية من الأخطاء الصغيرة (توقف التاكسى فجأة) التى ينتج عنها أخطاء كبيرة (الاصطدام)، تستمر دون أن يكون هناك أى أمل فى أى إصلاح ما دام المخطئ يعتبر غير مسئول عن خطئه، وبالتالى نخلق حولنا هذا المناخ العام من التواكل واللامبالاة واليأس التام.

فى إذاعة الشباب والرياضة كنت قد استمعت إلى ندوة مع لواء مرور عن أزمة مرور مدينة القاهرة. تحدث الجميع بصراحة عن ضرورة تغيير صورة عسكرى المرور المصرى، يجب أن يكون مثقفًا، يجب أن تكون له شخصية، يجب أن يحترمه الجميع!! ولكنهم تجاهلوا جميعًا مسألة ضرورة زيادة مرتب هذا العسكرى الغلبان، وأنكروا تمامًا (مثل النعامة) فكرة أن يكون هذا العسكرى الغلبان قابلا للرشوة، مقابل غض النظر عن مخالفات مرورية. أتذكر هنا قول الدكتور أحمد تيمور (طبيب وشاعر) فيما يتعلق بهذه المسألة إذ قال (أعطونا حقوقنا المرورية قبل أن تطالبوننا بواجباتنا المرورية).

(٤)

أما حكاية سائقى مينى باص رقم ٤٩، ومينى بـاص رقـم ١٠٤ (وهما الخطان اللذان أستعملهما بكثرة من التحرير أو من الجيزة وإلى الزمالك)، فهى حكاية طويلة. ولكننا يمكن أن نحاول تلخيصها فيمـا يلى:

١- يمكن لأى سائق من سائقى المينى باص تغيير مسار سيارته كما يشاء بدون أن يكون لأى راكب الحق فى أى اعتـراض. وهكـذا فإن المينى باص ١٠٤، والقادم من ميدان الجيـزة، وهـو مـن المفروض أن يمر على كوبرى الجامعة ثم إلـى شـارع قصـر العينى ومنه إلى ميدان التحرير، قد يقرر سـائقه فجـأة إذا وجـد زحامًا عند كوبرى الجامعة، أن ينحرف يسارًا ويأخذ شارع النيل فى طريقه إلى الزمالك، وعلى الراكـب المعتـرض أن يغـادر السيارة (حدث لى هذا أنا شخصيًا).

٢- يمكن لأى سائق أن يدعى فى أى وقت انتهاء دفتر التـذاكر، وإن كان هذا لا يمنعه من جمع ثمن التذاكر من الركاب، بحجة قطعها من دفتر آخر فى وقت آخر (صحيح أن مرتباتهم ضعيفة ولكـن هذا التصرف يتميز بقدر كبير من البجاحة).

٣- يمكن للسائق، إن لم يعجبه شكل الزبائن، أو طريقـة تصـرفاتهم معه، أو اعتراض أحدهم على تصرفاته، أن يركن السيارة فى أى مكان، فى أى شارع، ويسحب المفتاح مـن الموتـور، ويغـادر السيارة مدعيًا أنها عطلانة.

٤- يمكن أن ينتظر الزبون سيارة ما على خط ما، مدة ساعة، ثم يفاجأ بحضور ثلاث أو أربع سيارات تحمل كلها نفس الرقم معًـا مـرة واحدة (يتحجج السائقون بالزحام وصعوبة مرور السيارات، ولكنى أعتقد أن المسألة تتعلق حاليًا بعدم وجود أى إشراف فعلى عليهم).

٥-غالبًا ما تكون السيارات شبه الخالية من الركاب، مضربة عن التوقف فى المحطات، لالتقاط المزيد من الركاب، فى حين أنه من الملاحظ أن السيارات التى تكون عادة مزدحمة تمامًا بالركاب، هى التى تتوقف فى المحطات، وذلك حتى يزداد عذاب الركاب بقدر الإمكان، ويشبع سائقو السيارات، التى تمر خالية أمام الركاب الواقفين على المحطات يتحسرون، رغبتهم السادية فى تعذيب الآخرين، وجعل المواطنين يشعرون بالإحباط التام.

٦- يرفض أغلب سائقى المينى باص حاليًا جمع قيمة التذاكر بأنفسهم من الركاب، وهم عادة ما يكلفون أحد الركاب صغار السن بالقيام بهذه المهمة، على أن يقدم هذا الراكب المبلغ المجموع من بقية الركاب إلى السائق الجالس على كرسيه فى مقدمة السيارة، كأنه نوع من التقدمات أو القرابين أمام مذبح أحد الآلهة، بشرط ألا يدقق هذا الراكب فيما بعد فى عدد التذاكر.

٧- هل أنا أول من قال أن الجرى وراء الأتوبيس عدة مرات فى الصباح الباكر، ومثلها بعد الظهر، هى رياضة مصر القومية؟ أم أن هناك من سبقنى إلى هذا القول؟

أستطيع أن أضيف أنه يمكن لمصر أن تطلب إضافة هذه الرياضة إلى قائمة الألعاب الأولمبية، وذلك بوضع عدد من الأتوبيسات فى مضمار الجرى حول ملعب كرة، ويطلب من فريق كل دولة الجرى وراء أتوبيسه، والقفز فيه أثناء سيره، على مسافة عدة مئات من الأمتار منه، مؤكد سيكون قصب السبق للفريق المصرى؛ فأنا أشاهد فى محطات الأتوبيس حتى المتقدمين فى السن يجرون بكفاءة كبيرة، ويقفزون بلياقة بدنية عالية داخل الأتوبيسات أثناء سيرها.

(٥)

وأما فيما يتعلق باليفط الخاصة بأسماء الشوارع والميادين والأماكن العامة فحدث ولا حرج:

١- فوجئت وأنا أسير فى منطقة فيصل بالهرم، بأن اسم شارع فيصل الكامل، حسب اليفط الزرقاء المعلقة على بعض مبانيه، هو شارع (فيصل السطحى البحرى)، لأول مرة أعرف اسم أبيه واسم جده، الملك فيصل طبعًا. ولكن هل هذا معناه أن هناك شارعًا آخر يحمل اسم (شارع فيصل السطحى القبلى)؟ وأن هناك شارعًا ثالثًا يحمل اسم (شارع فيصل السفلى البحرى)؟ وأن هناك شارعًا رابعًا يحمل اسم (شارع فيصل السفلى القبلى)؟ الله أعلم، ولكنه شئ يدعو إلى التأمل والدهشة، وربنا يخلى لنا البلديات التى تجعلنا نحتفظ بخاصية التأمل والاندهاش، وهى الخاصية التى يتمتع بها الأطفال الأبرياء والفنانون.

٢- هناك يافطة أخرى موجودة فى شارع رمسيس، تشير إلى قائدى السيارات بالأحرف الكبيرة بالاتجاه إلى (ميدان الشهيد). تساءلت يا ترى أين يقع هذا الميدان؟ فأنا لم أسمع بهذا الاسم من قبل، رغم دورانى المستمر فى الشوارع منذ سنوات طويلة، وكنت أسير على قدمى، فوجدت بعد مسافة بضع مئات من الأمتار يافطة أخرى تحمل اسم (ميدان الشهيد عبد المنعم رياض). فهمت أن الذى كتب اليافطة الأولى كان قد استعمل حروفًا كبيرة، فلم تسع مساحة اليافطة الاسم بالكامل. هل كان المقصود باليافطة الأولى إرشاد الناس أم تضليلهم؟ إلى هذا الحد وصل العبث باللافتات العمومية، والاستهتار بعقول الناس.

٣- عدت مرة مشيًا من القلعة وفى اتجاه وسط البلد، فمررت بشارع وجدت يافطته تقول (شارع الرفاعى)، ثم بعد بضعة مئات من

الأمتار وجدت يافطة أخرى فى نفس الشارع تقول (شارع السيد الرفاعى)، ثم بعد ذلك بأقل من مائة متر يافطة ثالثة تقول (شارع سيدى الشيخ الرفاعى)، وكلها مكتوبة بنفس الخط، أى غالبًا أن كاتبها هو نفس الشخص، غير معروف بالضبط ماذا يقصد، هل هى ثلاثة شوارع مختلفة؟ أم أنها ثلاثة أسماء مختلفة لشارع واحد؟ ثم كيف يمكن هنا أن نستدل على عنوان؟

٤- يذكرنى هذا بمدينة (أبو سمبل)، فهى تكتب بالحروف اللاتينية بست طرق مختلفة فى الطريق من مطار المدينة إلى موقع المعبد. Sombol , Sembel, Simbel, Sonbol. تكتب هكذا على لوحات إرشادية للسياح الذين يسألوننى فى كل مرة فى الطريق من المطار إلى المعبد (هل هذه الأسماء هى لنفس المدينة؟ أم أن هناك ست مدن مختلفة؟)، وأحتار كيف أرد عليهم، كيف يكتب اسم المدينة بست طرق مختلفة، وكيف أننا لا نعرف فعلا الاسم الحقيقى لهذه المدينة، أقول لهم أحيانًا باللغة العربية (كله عند العرب صابون)، فيسألوننى ماذا أقول بالعربية، ويطلبون منى ترجمته إلى الفرنسية، فأقول: إن العرب كانوا قد خسروا الكثير من الدقة العلمية، التى اشتهروا بها فى عصر النهضة الإسلامية، عندما توقفوا عن استعمال الحركات فى تشكيل الكلمات (الضمة، الفتحة، الكسرة).

٥- هناك يافطتان الأولى فى القاهرة وكانت فوق كوبرى ٦ أكتوبر (ولم تعد موجودة والحمد لله)، وكانت تقول بالإنجليزية Cairo ob.، أما الثانية فكانت فى الأقصر (وما زالت موجودة) وهى تقول بالإنجليزية كذلك .Louxor ob. إذا كان هناك سائح أوروبى قد رأى هاتين اليافطتين، فإنه قطعًا سيعتقد أنهما تشيران إلى نفس الشىء، فى القاهرة وفى الأقصر، وسيتساءل: يا ترى ما هو هذا الشىء؟ فإن للاختصارات قواعد دولية متعارف عليها، قد يعتقد

أن المقصود هو مرصد القاهرة Cairo observatory.

الحقيقة هى أن يافطة الأقصر تشير إلى مسلة Obelisk موجودة فى أحد الميادين، إلا أن الشئ العجيب هو أن يافطة القاهرة كانت تشير إلى دار أوبرا القاهرة Opera، إلا أن موظف البلدية المسئول عن كتابة اللوحة، لم يكلف نفسه عناء التأكد من طريقة كتابة الكلمة بالبحث فى القاموس، فكتبها بالطريقة الشائعة فى مصر والخاصة بخلط الباء الثقيلة بالباء الخفيفة، تلك المتاهة التى لا يستطيع أن يخرج منها إلا قلة من المصريين. ولكن هذه اليفط هى الدليل القاطع على أنه لا يوجد فى بلديات مدننا موظف واحد يجيد الإنجليزية، وذلك لأن مرتبات الحكومة لم تعد تشجع أى شخص يجيد أى عمل على أن يصبح موظفًا حكوميًا، ولم يعد يقبل الوظيفة الحكومية فى الغالب إلا الأشخاص الذين لا يجيدون أعمالهم. (وعلى قد فلوسهم).

obeikandl.com

شارع قصر العينى

عندما تسير فى هذا الشارع، قادمًا من ميدان التحرير فى اتجاه فم الخليج ومجرى العيون، يكون الحى إلى يمينك هو جاردن سيتى، والحى إلى يسارك هو المنيرة، وأنا كثيرًا ما أقطع هذا الشارع مشيًا على الأقدام، وتمر بذاكرتى صور مختلفة، منها مثلا ما يتعلق بمتابعة الدراسة فى المركز الثقافى الفرنسى بالمنيرة، ومنها أيضًا ما يتعلق بمتابعة الدراسة فى المركز الثقافى الصينى بجاردن سيتى، وهناك كذلك قصر ثقافة قصر النيل المخصص للسينما، وهناك كذلك العديد من دور النشر والمكتبات، إلا أن أهم صورة على الإطلاق تعود إلى ذاكرتى، هى صورة ذلك اليوم من صيف ١٩٨٦، عندما أعلنت نقابة الأطباء، والتى تقع فى نفس هذا الشارع، عن حاجة بعض الدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية إلى عدد من الأطباء المصريين، للعمل فى وظيفة ممارس عام، بشرط الإجادة التامة للغة الفرنسية.

كان توقيت الإعلان مناسبًا، إذ إننى كنت قد انتهيت للتوّ من متابعة الدراسة لمدة حوالى ستة أشهر، فيما كان يسمى مركز التعاون الثقافى الفرنسى (الكورس المكثف فى اللغة الفرنسية للأطباء)، واعتقدت أنه لا ينقصنى إلا قدر من الثقافة العامة فيما يتعلق بالشئون الأفريقية، فاشتريت أطلس التاريخ الأفريقى، وكذلك مذكرات الطبيب الألمانى "ألبرت شفايتزر" فى أفريقيا!!! وهو المبشر المسيحى الإصلاحى الذى عندما ذهب إلى أفريقيا لأول مرة، أدرك حقيقة أن أهل أفريقيا كانوا فى حاجة إلى المساعدة المادية، أكثر من حاجتهم إلى بعض الآيات والكلمات التبشيرية!!! فعاد إلى بلده يقيم حفلات عزف على الأورج الذى كان يجيده ليجمع التبرعات، ووصل به الأمر بعد ذلك، إلى دراسة الطب فى سن الأربعين!! المهم أننى قد

تقمصت الدور!!!

ولكنى عندما ذهبت حسب الميعاد الذى حدده الإعلان إلى مبنى نقابة الأطباء، فوجئت تمامًا بالزحام الشديد على الأبواب ، وتوقعت أن يكون هذا الزحام لسبب آخر لا علاقة له بوظيفة طبيب ممارس عام!! ولكنى وللأسف الشديد اكتشفت الحقيقة المرة وهى أن كل هؤلاء الأطباء (حوالى ٣٠٠ طبيب) موجودون هنا الآن لهذه الوظيفة فقط لا غير!! وظيفة ممارس عام!! وفى أى بلد؟؟ فى رواندا!! ، وليس فى نيجيريا مثلا (بلد بترولي)!! يا عالم كل هذا الحشد لمجرد وظيفة طبيب ممارس عام فى رواندا؟؟ اكتشفت كذلك أن عددًا من المتقدمين حاصلون على ماجستير فى تخصصات مختلفة!! ولكن يبدو أن البطالة قد طالت مهنة الطب!! ولا حول ولا قوة إلا بالله!! وطبعًا لم يستطع المسئول إجراء مقابلة شخصية مع كل هذا العدد من المتقدمين، ولكنه اكتفى باتخاذ إجراء مبدئى، وهو استبعاد الحاصلين فقط على بكالوريوس الطب، والاكتفاء بالحاصلين على الماجستير، وكان عددهم كبيرًا حوالى سبعين، وكل المطلوب هو واحد فقط!! ورغم أن الموضوع لم يعد يخصنى (فأنا لم أحصل إلا على البكالوريوس فى الطب) إلا أننى بقيت لأعرف ماذا سيحدث؟ وهكذا سمعت الاقتراح القائل بإعطاء العقد لأكبر الأطباء العزّاب المتقدمين سنًا (وذلك كنوع من المساعدة له على إتمام فكرة الزواج!!) أو أن يدخل أفضل المرشحين فى جدل علنى باللغة الفرنسية، ويحصل على العقد ذلك الذى يثبت طول باعه فى اللغة الفرنسية!! وقد طرحت كذلك فكرة الالتجاء إلى القرعة (وذلك ليذهب العقد إلى من هو مكتوبٌ له!!) وقد اشتبك الأطباء بعضهم مع بعض! بل اشتبكوا كذلك مع مندوب النقابة الذى كان قد تدخل لفك الاشتباك!! وانتهى اللقاء بعدم الوصول إلى قرار!! وانصرفت من النقابة وأنا أشعر بالحسرة على الطبيب المصرى الذى لم تعد له قيمة حتى فى مجاهل أفريقيا!!

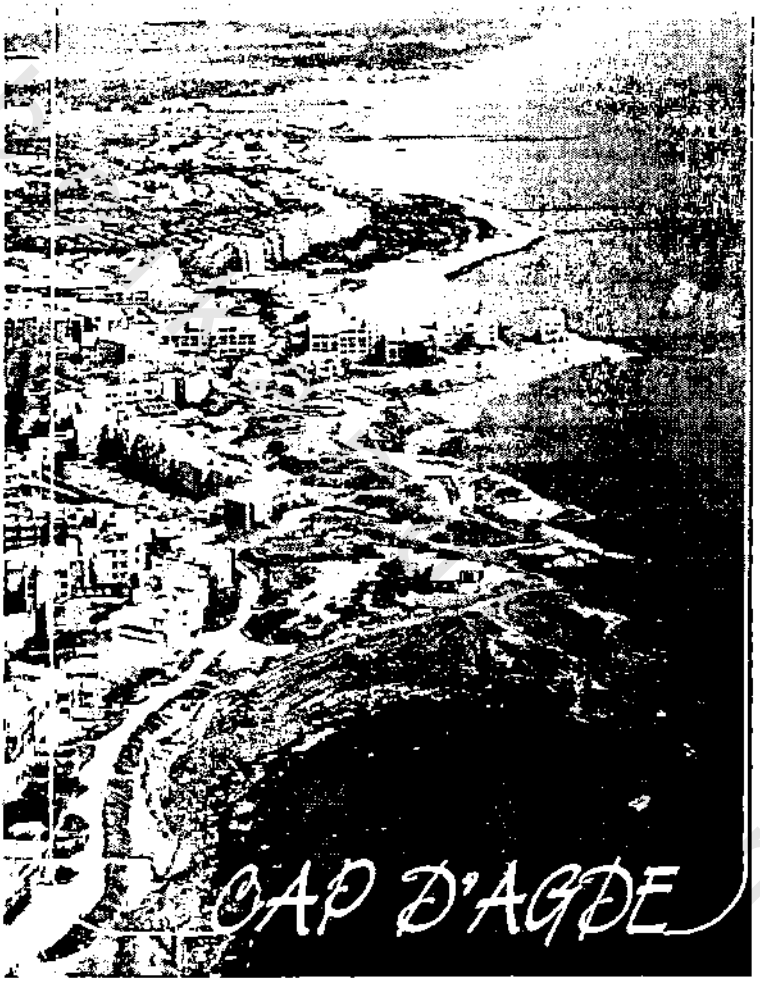
CAP D'AGDE